

الشيخ محمد الأطرش السنوسي ومكتبته

الأستاذ حمدادو بن عمر

كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية - جامعة
وهران

الضوء على مسائل ثلاث:

- مميزات الشيخ وخصاله،
- ريادته للبحث المصدري،
- نماذج من نفائس المخطوطات التي تضمنتها خزانته الخاصة.

أولاً: مميزات الشيخ وخصاله: تميّز الشيخ الأطرش السنوسي رحمه الله بميزات وخصال حميدة قل نظيرها ويمكن إجمالها فيما يلي:

1. ثقافته العامة: والتي لم تكن مركزة على الفقه أو الدراسات الإسلامية وحدها بل تعدتها إلى علم التاريخ والأدب والفكر وهي أمور كان لها أثرها في تعامله مع كافة أنواع

أنعم الله تعالى على هذه البلاد بإنجاب عدد كبير من العلماء الأعلام الذين تميزوا في مختلف الميادين كالفقه وأصوله والأدب والتاريخ والعلم، وما إلى ذلك من المعارف... وقدّموا لبلدهم خدمات جليلة يعرفها العام والخاص على مستوى العالم العربي والإسلامي.

ومن بين هؤلاء الأعلام ومن أشهرهم العلامة الأصولي والفقيه والمفتي والمؤرخ ورائد البحث المصدري في الجزائر المرحوم الشيخ الأطرش السنوسي. ولا أريد الغوص في تفاصيل حياته واستعراض أبحاثه ومقالاته ومشاركاته في المنتديات العلمية داخل الوطن وخارجه، بقدر ما أردت تسليط

ثانيا: ريادته للبحث المصدري: يتميز الشيخ الأطرش السنوسي بمنهج خاص به في البحث، يتمثل في الكشف عن المصادر الدفينة في الفقه وأصوله والتاريخ والأدب والمخطوطات المتصلة بحضارته والتعريف بمصادر فقهية وأدبية. وإطلالة سريعة على آثار الشيخ الأطرش السنوسي تؤكد ذلك:

فأما المؤلفات التي تعد من روائع البحث المصدري فهي:

■ الإمام مالك ومدرسة المدينة

■ تيسير الوصول لعلم الأصول

ويمكن أن نضيف إلى هذه المؤلفات مقالات مهمة صدرت للشيخ الأطرش السنوسي رحمه الله في منابر مختلفة، خصوصا في مجالات الحضارة الإسلامية ومجلات عربية محكمة... إضافة إلى مشاركته في العديد من الملتقيات والندوات العلمية المحلية والدولية.

ثالثا: نماذج من نفائس مخطوطات خزانته: مما لا شك فيه أن أغلب الباحثين في الدراسات العربية التي تهتم بالتراث

الكتب والمخطوطات النفيسة والمطبوعة وتصنيفها وفهم مضامينها.

2. أفاد الشيخ الأطرش السنوسي الباحثين والمؤرخين بمؤلفاته الشخصية التي كتبها مثل: الإمام مالك ومدرسة المدينة، تيسير الوصول لعلم الأصول،... الخ

3. عمله الدؤوب ضمن لجنة المجلس العلمي لمديرية الشؤون الدينية والأوقاف، وتتابع عمله ضمن حقل الفتوى.

4. كما أفاد الشيخ الأطرش السنوسي طالبي العلم بمكتبته الغنية بنفائس الكتب والمخطوطات القيمة التي تحتاج إلى دراسة وعناية مركزة.

5. حافظته القوية التي تستوعب أسماء الرجال وعناوين مؤلفاتهم ومضامين الكتب وتواريخ الأحداث.

6. عطفه الكبير على الطلبة والباحثين وإظهار العناية بهم والاستماع إليهم في تواضع عز نظيره، وفي نكران ذات لا يعطيه الله إلا للمخلصين المتقين من عباده.

ولله الحمد والمنة أننا سوف نرى خروجه إلى النور بعد طبعه وتوجيهه إلى عامة الباحثين والمؤرخين والمهتمين بتاريخ الجزائر عبر مختلف حقبة التاريخية.

تبلغ صفحات هذا الكتاب الضخم حسب الفهرس الموجود عندنا 1513 صفحة، يبتدئه الشيخ بإعطاء لمحة موجزة عن التوسعات المسيحية التي شملت أجزاء المغرب الإسلامي وتبيان الوضع العام لهذه البلاد والولوج مباشرة إلى تواجد الاسبان بالغرب الجزائري وتوسعاته فيما بعد، مرورا بطلب النجدة من الإخوة بربروس عروج وخير الدين، وذكر بعض الحوادث التاريخية المهمة التي لم يرد ذكرها بالتفصيل في الكتب التاريخية الأخرى كحادثة ابن عربي وقدر بالمخفي مع الأمير عبد القادر. وكذا ما تعلق الأمر بالثورة التحريرية الكبرى وما قبلها، لأن الشيخ عايش تلك الفترات المهمة من تاريخنا.

كما يتعرض بعد ذلك إلى قضية تحرير وهران من التواجد الإسباني فاصطدام العثمانيين بحركتي درقاوة

يعرفون دلالة خزانة الشيخ الأطرش السنوسي وأجداده، وما تحويه من نفائس المخطوطات والوثائق وفرائد المطبوعات من كتب على اختلاف مشاربها ومضامينها ومجالات متنوعة كما سبق ذكره. لأن صاحبها رحمه الله اتّصف بالسخاء والكرم في هذا المجال.

وقد اهتديت إلى خزانة الشيخ السنوسي كونه جعلها وقفاً لله تعالى بمكتبة مديرية الشؤون الدينية لولاية وهران، فكانت الفائدة أعم وأشمل.

إن الشيخ العلامة الشيخ أحمد الشريف الأطرش السنوسي، غني عن التعريف بشخصه الكريم، فهو كما يعرفه الباحثون العالم المتنوع المعارف، السخي بعلمه المتواضع بشخصه... الذي خدم العلم عقوداً طويلة، وجمع من الكتب ما كون بها خزانة عامرة، وإذا كان شيخاً غنياً عن التعريف فإن ذخائر مكتبته تحتاج إلى تعريف القارئ بها. فمما غمرني به من نوادرها مخطوط ألفه الشيخ يقع في أجزاء عدة أجزاء سماه: "تاريخ الجزائر عبر الخمسة قرون الأخيرة أو تاريخ الجزائر عبر العصور".

والإصلاح الجامعي ثم ذكر مآثر الفترة البومدينية وإصلاحاتها في مختلف الميادين ثم يختم الشيخ كتابه المطول بالحديث عن دور اتحاد الأدباء العرب والثورة الثقافية والتعريب، فاللجنة الوطنية للتعريب.

فمن جملة تلك الحوادث التاريخية التي فصل فيها الشيخ أيما تفصيل "حادثة ابن عربي وقدر بلمخفي" "... ففي شهر جوان من عام 1834م كان نبأ عصيانهما حديث القاصي والداني، سيما وقد عقد الرجلان عهداً بينهما على توحيد المجابهة زماناً ومكاناً، فخيم المغامران بموقع "البرج" شرقي معسكر على أمل الهجوم عليها. وفي 17 جوان من نفس السنة حمل الأمير عبد القادر على ابن عربي ورهطه في "قبيلة البرجية"، فأسر رجالها وسبى نساءها ومن بينهم حريم ابن المخفي وبنوه، وفرّ ابن المخفي عندما رأى رجاله يتساقطون وأذعن بقيتهم".

"وأما ابن عربي الذي اعتبذ في القلعة فقد تأخر بجموعه إلى نواحي

والتيجانيين، ثم يتعرض بعدها إلى ذكر أنظمة العثمانيين بالجزائر الإدارية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية الثقافية. فالتوسع الفرنسي والمقاومة وظهور شخصية الأمير عبد القادر وأهم الأحداث التي جرت في عهده ثم ذكر لأهم التغيرات ومن ثم إحداث تنظيمات أو أنظمة اقتصادية واجتماعية وثقافية... كما يتطرق الشيخ الأطرش السنوسي إلى استسلام الأمير عبد القادر عام 1847م وكذا استسلام أحمد باي عام 1848م وتواصل المقاومات الشعبية فيما بعد، ثم وصف دقيق للحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية والثقافية عشية الاحتلال الفرنسي إلى غاية ظهور الحركات الوطنية السياسية قبل الحرب العالمية الأولى وما بعد الحرب العالمية الثانية.

كما يتناول الشيخ الأطرش السنوسي في كتابه الضخم بعض الأحداث التاريخية التي تكاد تكون غامضة في تاريخنا المعاصر من انتفاضة 19 جوان 1965م ثم التعرّيج على حركة التعليم الأصلي والتعليم العالي

نهر الشلف ومينا، إثر ما بلغه من نبأ صاحبه فتابع الأمير غزواته حتى قضى على حركتهما وأطاح أنصارهما، ثم ولي خليفة عنه في تلك النواحي السيد بوشاقور.

وفي أواخر شهر أوت وفد على الأمير عبد القادر بمعسكر الشيخ ابن الغماري رئيس قبيلة "أنكاد أو أنقاد" وابن عريبي وقدور بالمخفي في جمع من أعيان قبائلهم طلبا للعفو وإعلانا بالطاعة، فعفا عن ابن المخفي وحده

وقبض على ابن الغماري وابن عريبي، وصهره محمد ابن المداح وأودعهم السجن رهن التحقيق. وقد مات الأخيران ضحية داء الكوليرا، وأما ابن الغماري ففر من سجنه ولحق بقبيلة المشارف من نواحي معسكر، حيث قبض عليه هناك وأعيد إلى معسكر فأعدمه الأمير مع خادمه...". وهناك حوادث تاريخية مهمة أخرى فلنترك للباحث استنباطها وتوظيفها في مكانها اللائق بها. ■

